

## الأفغانى والوحدة الإسلامية

الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف

— ٤ —

—>>><<<—

وأخيراً ، أين بلغ الأفغانى من التأثير فى المسلمين بدعوته ؟  
وأين وصل من الطريق إلى هدفه وغايته ؟ وماذا أجدى فى تحقيق  
تلك الفكرة التى نهض لها ملء يقينه وجهد طاقته ؟

إننا نستمع إليه فى آخر حياته يرسل هذه الصيحة الألبية  
البائسة إذ يقول : « إن المسلمين قد سقطت همهم ، ونامت  
غرائبهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شيء واحد فيهم ، وهو شهواتهم ! »  
ففى هذه الصرخة التى تفيض بالألم نرى الرجل منيفاً محققاً ،  
لأنه لم يجد فى المسلمين العزيمة التى كان يتمثلها ، والوثبة التى كان  
يتوقها ، وكأنه يقول : لقد ناديت لو أسمعت حياً ، وانواقع أن  
الرجل لم يكن يستطيع أن يبلغ أكثر مما بلغ ، فإنه كان ينادى  
على قوم يأخذون طريقهم إلى النهاية ، وسن الوجود الاجتماعى  
لها فى هذا حكمها الذى لا يرد ، وقد كان التيار المتدفق من الخارج  
قويًا عنيفاً ، ودنيا النضال والنزال فى عهد جديد تسيطر عليه  
الآلة ، وهو عالم لا يعرف عنه المسلمون إلا كما يعرفون عن عالم  
الصحر ودنيا الجان

غضب الرجل نجاحاً أنه فتح العيون على الخطر المائل ، ونبه  
الأذهان إلى غاية الشر الثمر ، وأنه استطاع بصادق غيرته وقوة  
يقينه أن يجعل من دعوته نقطة تحول فى حياة الشرق العربى ،  
وأن يقيما عقيدة اجتماعية لها تيارها وأجهاها فى تلوين الأفكار  
وتوجيه العقول والأفهام ، على أننا لا ننسى أن الأفغانى فى هذا  
كله كان لا يملك كثيراً من الوسائل المساعدة ، فهو رجل فقير  
مضطهد ، الملوك وأهل السلطان يخذلون جهده ، ودول الاستعمار  
وأهل الكآرب يناهضون فكرته ، ففراه كل يوم على سفر بضرب  
فى فجاج الأرض ، كل ما فى قدرته أن يلتقى بأفكاره إلى أفهام  
الطبقة المثقفة ، وكانت بمذالك قلة ، وليست فى يده الوسيلة التى  
يصل بها إلى رأى العام ، ونحن نعلم من شواهد التاريخ أن الرأى

العام هو القوة الفعالة فى تحقيق الدعوات ، وأن الجاهل هو الرقود  
الذى ينضج الثورات

ولعل أهم ما أجدى السيد الأفغانى فى توطيد دعوته والامتداد  
بآثرها فى إيقاظ الشرق وتنويره ، هم أولئك التلاميذ ، أو على  
الأصح أولئك الريدون الذين طبعهم بطابعه ، وصقلهم على غراره  
وخلع عليهم كل ما خصه الله به من عبقرية الدرس وعبقرية النفس ،  
فكانوا لسان صدق للدعوة ، وكانوا دعاة مخلصين واجهوا بها  
الأحداث فى إباء وشجاعة ، ولاقوا من أجلها الأهوال فى قوة  
وصرامة ، وقد كان أبرز هؤلاء الدعاة الأستاذ الإمام الشيخ  
محمد عبده رضوان الله عليه ، والسيد عبد الرحمن الكواكبي  
رحمه الله

أما الشيخ محمد عبده ، فقد كان صوتاً متفكراً مع الأفغانى ،  
شاركه الرأى والجهاد فى ميدان واحد ، وأما الكواكبي فكانت  
حياته أشبه ما تكون بحياة أستاذه فى الرحلة والتنقل من قطر إلى  
قطر ، وكانت تعاليمه ودعوته إلى الوحدة صورة مطابقة لما كان  
ينادى به الأفغانى . كان الأفغانى كما مر بك يرى أن تقوم  
الدعاية للوحدة بعقد مؤتمر عام كل سنة فى مكة يجمع أصحاب  
الكلمة والرأى من العلماء لحسم كل نزاع ، وتدير كل ما من  
شأنه النهوض بالمسلمين ، فتطوع الكواكبي لعقد هذا المؤتمر  
فى عالم الخيال أو فى عالم الأمل ، وندب له أعضاء من جميع  
الأقطار الإسلامية ، ووضع أمامهم حال المسلمين للبحث وتمحيص  
الرأى ، وقد جعل هذا موضوع كتابه المعروف « بأم القرى » ،  
وهو اسم أخذه أيضاً من اسم الجمعية التى كان أنشأها أستاذه بمكة  
من قبل

ولكن هؤلاء الدعاة ، وهم ما هم فى صدقهم وإخلاصهم  
لم يستطيعوا أن يتمسكوا إلى آخر الشوط بدعوة الأفغانى فى نصها  
وحرفيتها كما يقولون ، لأن الحوادث كانت تتطور تطوراً سريعاً  
يحيط بهم ، ويكبر على جهدهم ، فكان عليهم أن يلاعوا بين خطتهم  
وبين طبيعة الحوادث ، وقد تبصر المعتدلون من هؤلاء الريدين  
والأتباع ، فأروا أن وحدة تشمل سائر الأقطار الإسلامية وتجمعها  
فى صعيد واحد لا يمكن أن تقوم لا فى الوضع السياسى ولا  
الاجتماعى ولا العمرانى ، وأن الفكرة فى ذلك فكرة قضاة

في السلطنة العثمانية ، ثم أعلنت دستور سنة ١٩٠٩ ، فعمرت العرب موجة من السرور والارتياح ، وشاموا في هذا بداية عهد جديد يؤدي إلى جمع القلوب ، ولكن سرعان ما تكشفت الأمور فإذا هي هباء ، والأعيب ، وإذا الاتحاديون الذين أعلنوا الدستور وجاهدوا من أجله أشد الجاهل في هضم حقوق العرب والاستهانة بحريتهم وكرامتهم ، وظهر لأبناء العربية أن «القرمانات» التي حررت ، والدستور الذي أعلن لم يكن إلا خيراً على ورق ، فاقبلت آمالهم إلى خيبة مريرة ، وحسرة قاسية ، واشتدت عصبيتهم لجنسياتهم ، ووقفوا والعثمانيين وجهاً لوجه .

كانت هذه الحركة أقوى ما تكون في سوريا والعراق لوقوعهما مباشرة تحت سلطة تركيا ، ولكن مصر كانت أوسع ميدان لها وأفصح مجال للعاملين على امتدادها ، إذ كانت مصر في هذه الفترة موثلاً للمتمردين على الحكم العثماني من أبناء الأقطار العربية ، كما كانت مجال حركة فكرية تملك من الوسائل والأسباب ما لا يملك غيرها من أقطار العالم العربي ، وامتد تيار هذه الحركة على أوسع ما يكون ، وتآلفت أحزاب وجمعيات ومنتديات كثيرة في مصر وبيروت وفي الأستانة نفسها ، وكل منها يعمل في طريق للنهوض بأبناء العربية ، ووقف الشعبيون من أنصار الرابطة «الطورانية» يناهضون هذا الاتجاه ويناضلون العرب فيما يدعون إليه ، ووجد أنصار الأغراض الاستعمارية لأنفسهم من هذا منفذاً لبث آرائهم ودعواتهم ، فكان أن أصبح الرأي فوضى لا أقوام له ، وأصبح المساواة للوحدة والنهوض يخضعون لتيارات مختلفة ويعملون لأغراض متباينة ، في مصر مثلاً كان الرأي القوي الذائع هو أن تنال مصر استقلالها وأن تتحد مع جاراتها العربية ، على أن يكون ذلك في ظل الولاء للخلافة العثمانية ، ولكنك كنت تجد في الجهة القابلة رأياً يدعو إلى الاستقلال عن كل سلطة خارجية وصلة أجنبية ورعاية مصالح مصر قبل أي اعتبار آخر ، وفي سوريا والعراق كان جماعة ينتصرون للعربية من عسف الأتراك ، ويدعون إلى الوحدة على أن تظل على الإخلاص لبني عثمان ، ولكن الرأي السائد كان عداوة للأتراك ، وعصبيّة للجنس ، وتشجيعاً على الاستعمار العثماني في جميع أطواره ، وكان أصحاب هذا

متموجة لا تحدها معالم ثابتة ولا تسندها مقومات متينة ، فضلاً عما تثيره من الاتهامات والشبهات وما تلاقيه من المناهضة والمقاومة فمدلوا عن الوحدة الإسلامية إلى الوحدة العربية ، واختزلوا رغبة الأفتاني في قيام وحدة تشمل سائر الأقطار الإسلامية إلى وحدة عربية تجمع الأقطار المتجاورة المتشابهة التي وحدثت حوادث التاريخ الماضي بينها في اللغة والتفكير والمظهر الاجتماعي ، والتي تؤلف بينها الأغراض المشتركة والآمال المتفقة في الفوز بحياة الحرية والتمتع ، ولم يكن قصدهم «العربية» المحصورة في شبه الجزيرة العربية فحسب ، بل كانوا يقصدون أيضاً ما يفرح عنها من الجنس السامي في العراق وسوريا وفلسطين ولبنان ، وما يتصل بها من الجنس الحامي في مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وكانوا يعتقدون أن رابطة تشمل هذه الأقطار مما يدخل في دائرة الإمكان ، بل إنها قاعة روحياً ومعنوياً ، لا ينقصها إلا خطوة نحو التنفيذ والإنجاز !

وإذا كان دعاة «الإسلامية» قد وقفوا في تأييد دعوتهم عند أساليب الحث والوعظ والتذكير والإهابة بضرب الأمثال وأناشيد المجد السالف ، فإن دعاة «العربية» قد أخذوا في دعم فكرتهم بأساليب الفلسفة السياسية والاجتماعية ، وخلصوا عليها لباساً علمياً من النظريات العلمية التي كانت شائعة بين العلماء في ذلك الوقت . كانت الجامعة السياسية في رأى علماء الألمان تقوم على وحدة اللغة ووحدة الجنس ، وعند علماء الطليان ترتكز على وحدة التاريخ ووحدة العادات ، وعلى مذهب الفرنسيين تتمتع على وحدة الطموح السياسي ونفوذ السلطان ، وفي جماع هذه الآراء والاتجاهات وجد دعاة العربية بهاناً لدعوتهم ، من وحدة اللغة ، ووحدة الجنس ، ووحدة التاريخ ، ووحدة التقاليد ، ووحدة الطموح السياسي ، وبهذه الصبغة صبغوا دعوتهم ونادوا بفكرتهم وانتصروا لها بكل ما يملكون من أساليب البيان واللسان

وأذكي تيار هذه الفكرة ما كان من غطرسة الحكم التركي في الاستخفاف بمحقوق العرب والنظر إليهم بين الإغضاء والاستهانة ، وقد اضطرت تركيا تحت هذا الضغط إلى إصدار كثير من «القرمانات» تعلن فيها المساواة بين الأجناس والأديان

وأمدت تركيا بهبات سخية من المال والعتاد ، وأعاتت للتكويين إعانات فياضة ، مما دل على الإخلاص في النية ، والصدق في العزيمة ، والنور في الملأ .

واطردت الأمور متقلبة متحولة ، ومضت الأحوال تجري بين جزر ومد ، ولم تلبث الحرب الماضية أن نشبت على أوسع رقعة ، ودخلتها تركيا إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ، فطوى كل رأى في صدور أصحابه ، ووقفت كل دعوة عند حدودها ، وأصبح الأمر للدعوات الحربية والسياسات الحزبية والاتجاهات اللتبسة التي لا يرتبط فيها اللسان بالقلب ، ولا يتصل فيها القول بالعمل ، وفي هذا الجوظهرت دعوة إلى « العربية » في شكل جديد وعلى وضع جديد ، وكان الفرض فيها يدور حول الحركة التي قام بها السلطان « حسين بن علي » في الحجاز ، وامتدت دعواتها إلى سائر الأقطار العربية ، وكان هذا الفرض هو ما تكشفت عنه الحوادث في أعقاب الحرب الماضية ، وكان أثر هذه الدعوة الجديدة هو ما انتهت إليه بعد .

### المقصود :

فأتت ترى فيما أوردناه عليك ، أن الدعوة إلى الوحدة إنما نشأت « إسلامية » قوامها القرآن في لسان الأفغانى ومحمد عبده والنكوا كبي وأصحابهم ، ثم انحزت إلى « العربية » في تقدير المتدلين ممن جاءوا على أثرهم ورسموا طريقهم ، ثم تشعبت هذه « العربية » فيما بعد إلى شعب لها مراميها وأغراضها ، ولها أساليبها وسبلها ، ولا شك أن التورخ السياسى والاجتماعى لحياة الشرق العربى في العصر الحديث لا بد له من تحليل هذه التيارات كموامل وعناصر كان لها أثرها في توجيه الرأى السياسى والاجتماعى الذى سيطر على الحركات الأخيرة ، وكيف النهضات الحديثة ، وأدى إلى ما بلقته الأقطار العربية اليوم ، بل وما ستبلقه في الغد ، والفضل في هذا كله للأفغانى العظيم ، الذى وهب نفسه للوحدة ، وظل طول حياته يجاهد في سبيل هذه الدعوة .

محمد شهمى عبد اللطيف

( تم البحث )

الرأى يفتقدون أن العرب إذا انسلخوا عن الوحدة العثمانية في مقدورهم « أن يقيموا لأنفسهم دعائم استقلال سياسى » ، ولا بأس عليهم من الاستمرار الأوربى ، وكان أكثر أهل هذا الرأى من « محترفى السياسة ونجارها » كما يقول بعض الكتاب ، ولنا في مقام توزيع السمات وتحقيق الاتهامات وتفنيذ الآراء ، ولكمنا إلمامة عارضة أوردناها على قدر ما يقتضيه الموضوع الذى نحن بصدده في بيان الأثر الذى امتدت به دعوة الأفغانى .

هذه الفوضى التي اضطرت بالأفهام وبسبب الأفكار ، وهذه الأغراض التي دخلت على الدعاة إلى الوحدة العربية واردة من « أوروبا » ، جعلت العقلاء ينظرون إلى المسألة بعين التبصر مرة أخرى ، ويحكمون فيها عقولهم قبل أن يندفعوا إليها بمواظفهم ، فظهر لهم أن هناك خطراً مائلاً يهدد كل وحدة في الشرق مهما كان لونها أو اتجاهها ، وأن أوروبا تريد أن تضع يدها على تركة المسلمين تحت سمعهم وبصرهم ، وأن « القوة العثمانية التي تمثل الاستقلال السياسى للمسلمين والتي هي بطور السيادة الإسلامية قد أصبحت معرضة لأشد الأخطار » ، ظهر كل هذا للعقلاء التبصرين ، فأشفقوا من الخلاف القائم ، وانبروا يدعون إلى الاتحاد تحت راية الخلافة ، ومحضون على وحدة شاملة لمداغة الخطر ، وكانت مصر أفتح ميدان لهذه الدعوة وأعلى صوت في الدعاية لها والحض عليها ، لأن ما كانت تعانيه من عسف « كرومر » قد بصرها بالأمر ، ولأنها كانت في النهضة الوطنية والفكرية أسبق وأنضج ، ولأن صلة « بيتها الحاكم » بيني عثمان كانت تقوم على المودة والقرابة .

وبين عشية ونعهاها وضع الأمر وتكشفت الحقيقة فيما توقعه أولئك العقلاء ، إذ تألبت ممالك البلقان على الدولة العثمانية ، ودهمت إيطاليا طرابلس وبرقة وضرب أسطولها بيروت في غير شفقة ولا رحمة ، فوز هذا من أرمحية المصريين ، واستنار عواظفهم وشجونهم ، وارتفعت الأموات بالإشفاق على مجد الإسلام ومعاله الباقية ، وعادت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية لتكون قوة في وجه الاستمرار الذى كشف عن ناجذيه في غير مواربة ، وقد بذلت مصر بذل المخلص الشريف في نصرة العالم الإسلامى ،